وجوه اللّغة العربيّة في كتاب الوجوه

د. بهاء الدين محمد مزيد

اقتباس وتعليق

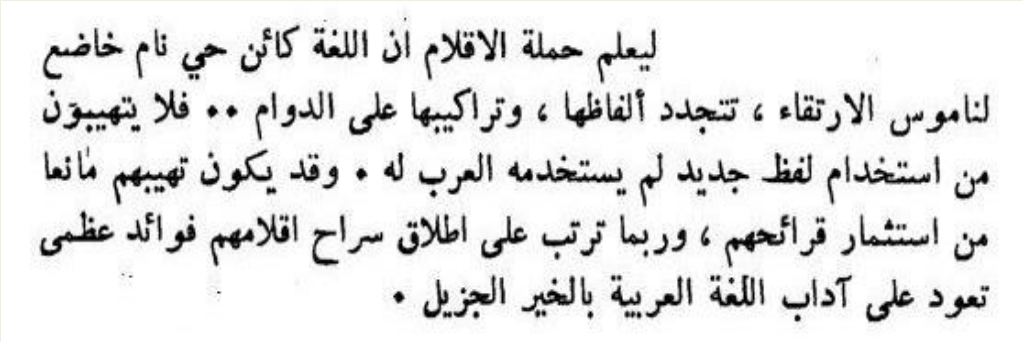
ليعلم حملة الاقلام أن اللغة كائن حي نام خاضع
لناموس الارتقاء ، تتجدد ألفاظها ، وتراكيبها على الدوام •• فلا يتهيبوّن
من استخدام لفظ جديد لم يستخدمه العرب له • وقد يكون تهيبهم مانعا
من استثمار قرائحهم ، وربما ترتب على اطلاق سراح اقلامهم فوائد عظمى
تعود على آداب اللغة العربية بالخير الجزيل •

من كتاب (اللغة كائن حيّ) لجرجي زيدان، 1988
وقد لفت أ.د. مصطفى رجب نظري إلى الخطا النحوي في "يتهيّبون"

"... فلنتفق على بعض الحقائق أولها أنّ اللغة لا تتغيّر أو تتوقّف عن التغيّر بقرارات سياسيّة أو تعليمات سياديّة – مع أن التخطيط اللغوي المنتظم الصارم قد يحدث أثراً في توجيه اللغة في اتجاه محدّد. مات العقاد رحمه الله وماتت معه "دار الخيالة" وبقيت "السينما"، وما زال العرب يقولون "التليفون" و"التليسكوب" و"الفاكس" و"الإيميل" و"الفيسبوك" رغم أنف "الهاتف" و"المرقاب" و"الناسوخ" و"البريد" الإلكتروني و"كتاب الوجوه". ثانيا، لا غضاضة في الاستعارة فهذا ديدن اللغات جميعها والقرآن فيه مفردات ليست عربية أصيلة. ومن سمات اللغة الإنجليزية التي انتهت بها إلى المكانة الراهنة قدرتها على استعارة المفردات من اللغات الأخرى بلا حرج – من اليونانية واللاتينية والعربية والفارسية وغيرها من لغات. أمّا موقف فقهاء اللغة العربيّة فيبقى في أفضل حالاته ملتبساً، فيهاجمون تأثير اللغات الأجنبية في لقاءات "تليفزيونية" ويبكون أمجاد اللغة العربيّة بينما يتفاعلون على "التويتر" و"اليوتيوب". ثالثة الحقائق أنّ اتجاه الاستعارة أو الإعارة بين اللغات يرتبط ارتباطا لا شكَّ فيه بالنفوذ السياسي والقوة الاقتصادية والعسكرية والثقافية. العرب أعطوا اللغات الاجنبية زمن قوتهم ونهضتهم "الجبر" و"الصفر" و"الجمل" و"الصفّة" و"اللوغاريتمات" و"الزعفران" وغير ذلك مما لا يتسع المقام لحصره من مفردات. (لم يحدث شئ من ذلك زمن النهضة العربية الثانية أيام رفاعه والعقاد ومحمد عبده وغيرهم لأنّها كانت نهضة "مقلّدة" تقوم على الترجمة لا الإبداع وتقرأ التراث العربي بعيون غربيّة). رابعا، لا سبيل إلى حجب المؤثّرات الخارجيّة، بل ليس هناك ما يحبذ الحجب لأنّ اللغات تتطوّر من داخلها وتتطوّر كذلك بفعل المؤثرات الخارجيّة. إنّما يكمن التحدي الحقيقي في بذل الجهود المخلصة في نحت أو اشتقاق مفردات عربيّة تحلّ محلّ المفردات الغربيّة، أو تجاورها، حتى لا "تنقرض" اللغة العربيّة، وأحسب أنّ من المخلصين من علماء اللغة العربيّة من يجتهد في هذا الاتجاه. من استطاع أن يستبدل بكلمة أجنبية كلمة عربيّة – والباء تلحق بالمتروك – دون خسائر دلاليّة أو تواصليّة فادحة ولم يفعل فهو مقصّر في حقّ لغته. لماذا نكتب "كومنت" و"كومنتات" إذا كان عندنا "تعقيب" و"تعليق" و"تعقيبات" و"تعليقات"؟ ...

مهاد

"لم يعد الأمر كذلك، بكل أسف. الخطأ في اللغة لم يعد شيئاً يستحي منه المرء، بل أصبح لفت النظر إلى الخطأ وإعطاؤه أي اهتمام هو ما يستحي المرء منه" (جلال أمين: **ماذا حدث للمصريين**، ط9، 2009، ص 97)

في حلقة يوم الأربعاء الحادي عشر من يناير 2012 من برنامج (من سيربح البونبون) على قناة "نايل سينما" سأل المذيع أحمد حلمي طفلة بريئة أن تكمل حكمة دارجة هي "ما حكى جلدك مثل ..." – وهي الشطر الأول من بيت شعر للإمام الشافعي. ما ظهر على الشاشة لم يكن خطّأ طباعياً، بل كان خطّا إملائيا مع سبق الإصرار والترصّد، فقد قرأ الفنان أحمد حلمي الكلمة هكذا "حكى"، وصوابها "حكّ". وعلى الفيسبوك (كتاب الوجوه) خبر منقول عن سر فوز الإسلاميين في الانتخابات البرلمانيّة في مصر بعد الثورة والسرّ هو بحث عامة المصريين عن "أمبوبة البوتاجاز". هذا حديث ذو شجون. لا أكتب فيه من مقعد المختص فلست من "علماء" اللغة العربية لكنني من محبّيها. لست من أهل اللغة العربية، لكنّ اللغة العربية بعض أهلي. ولا يعني ما أكتب أنّني لا أرتكب أخطاء في الكتابة باللغة العربيّة. هي ملاحظات مبدئيّة غايتها التنبيه ودافعها الحرص وسياجها المحبّة للغة ومن يكتبونها أو يتكلمونها.

تتناول هذه الدراسة وجوه اللغة العربية في كتاب الوجوه (الفيسبوك) ومشكلات وإشكاليات اللغة العربية في عصر مواقع التواصل الاجتماعي من خلال عدد من النصوص ذات الأغراض الخطابية المختلفة. من المشكلات ما يتعلق بالنحو والإملاء والصياغة، ومنها ما يتعلّق بالركاكة والابتذال وفقدان الكياسة واللياقة. تعرّج الدراسة كذلك على ما أتاح كتاب الوجوه من سبل ومنافذ للتعبير الأدبي والتواصل الاجتماعي التي لم توفّرها القنوات الإعلاميّة أو الأدبيّة من قبل. ولا بدّ أنّ عددا من مشكلات وإشكاليات التواصل والتفاعل عبر كتاب الوجوه مردّه إلى اختلاف الثقافات التي ينتمي إليها من يتفاعلون من خلاله. تتناول الدراسة كذلك مشكلات وإشكاليات تعريب "الفيسبوك".

وجوه اللغة العربية في كتاب الوجوه

ما سر الإلحاح على عبارة "كتاب الوجوه" في ترجمة الكلمة الإنجليزية المركّبة facebook؟ وراء ذلك سبب وأمامه غاية وهدف. السبب هو أنّ العبارة العربية ترجمة صحيحة تماما ولا غبار عليها على الإطلاق، إذ تتحقّق لها كل شروط الترجمة المثاليّة من أمانة النقل والوضوح والاستساغة. أمّا الغاية فهي التأكيد على أهمية تعريب الفيسبوك. هنا ينفتح باب جدل ربّما لا ينتهي عن اللغة والهويّة: عن االغات الأجنبية بوصفها معاول هدم وتشظية وغزو ثقافي في رأي طائفة من الناس، وبوصفها أداة لا غنى عنها على طريق التقدّم والرقي في رأي طائفة أخرى، وبوصفها نوعاً من الوجاهة الاجتماعية في تقدير آخرين.

فلنقنع من الجدل بأنّ اللغات الأجنبية لا غنى عنها لتحقيق التواصل مع العالم والاستفادة من منجزات حضارة الغرب والشرق، مع التأكيد على الحفاظ على اللغة الأم – التي أصبحت في بعض البلدان العربية أقل من زوجة أبّ. الواقع الذي لا ينكره منصف أنّ مئات الآلاف من أبناء وبنات العرب أصبحوا اليوم يشبهون غراب ابن المقفع الذي أراد أن يدرج كالحجلة فلم يتقن مشيتها ولا عاد إلى مشيته الأولى، فأصبح أقبح الطيور مشياً. لا هم أتقنوا اللغة الإنجليزية – "سيّدة" لغات العالم اليوم – ولا هم أتقنوا لغتهم العربية. على كل حال، في كتاب الوجوه وجوه شتى للغة العربيّة، **فوجه جميل ووجه مبدع ووجه ظريف ووجه قبيح ووجه شائه.**

وجه جميل

في كتاب الوجوه – بالإضافة إلى الاقتباسات من القرآن الكريم والسنّة النبوية والشعر العربي الأصيل - أقلام "مخضرمة" وأساتذة أجلّاء ومخلصون للغة العربيّة ومبدعون يحرصون على جمال الشكل حرصهم على جمال المضمون، ومجتهدون يتعلّمون من أخطائهم ويحسنون الاستماع إلى من ينصحهم. الصورة ليست مظلمة تماماً. وجه مشرق جميل يشرق على صفحات كتاب الوجوه لا سبيل إلى تجاهله أو إنكاره، بل ينبغي أن نلفت النظر إليه دفاعا عن لغتنا الجميلة وتكريساً للممارسات التي من شأنها أن ترقي بها. وهذا غيض من فيض ما يكتب المخلصون للغة العربية وعلومها في كتاب الوجوه:

"الفصيح من كلام العوام: يقول إخواننا في شمال مصر، بدِّي أعمل كذا بمعنى أريد أن أفعل كذا - والبِدَّة في اللغة هي الغاية . فلا حرج في هذا التعبير" (د. مصطفى رجب، 4 يناير 2012)

"وأقول له: إن تمييز العدد: اثْنَتَيْ عَشْرَةَ: محذوف؛ لفهمه من المعنى، وتقديره: قَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قبيلةً، والقبيلة هي مجموعة أَسْباط؛ فوضع (أسباطاً) موضع قبيلة. وعليه لا تكون كلمة أسباط تمييزًا- كما يزعمون - إنّما هي بدلٌ منصوبٌ من كلمة (قبيلة)، وفي لغة العرب البدل يتبع المبدل منه، ونظيرُه قول الشاعر:

وإنَّ قريشاً هذه عشرُ أبطنٍ * وأنت بريءٌ من قبائلها العشرِ

حيث ذَكَّر لفظ العشرة، ولم يقل: عشرة أبطن، لأنّ المراد بالبطن ها هنا القبيلة، أو الفصيلة" (د. فتوح خليل، 11 يناير 2012).

لا ينبغي أن نمرّ على هذه اللفتات مرور العابرين "الكرام"، بل ينبغي أن نشدّ على أيدي من يكتبون وأن نطالبهم أن يجعلوا من صفحاتهم مجتمعات تعلّم افتراضيّة virtual learning communities يتابعها الطلّاب والطالبات ويفيد منها المختصّ وغير المختصّ في علوم القرآن واللغة العربيّة.

وجه مبدع

في كتاب الوجوه، إلى ما سبق، وجه مبدع سماته وقسماته تلك القصائد أو الأبيات والقصص أو النصوص السرديّة والخواطر المحكمة وكذا الإحالات إلى روابط وصلات تشتمل نصوصاً من هذا القبيل لشعراء وكتّاب قصّة ورواية وخواطر أو مقالات أدبيّة. في دائرة محدودة تتألق كتابات لأدباء لا سبيل إلى حصرهم هنا، واقتباسات من أدباء كبار، مبدعون لا يضعون ما يكتبون من شعر أو سرد في كتاب الوجوه، ونقاد كبار، ومبدعون يؤثرون استخدام أسماء مستعارة. ولا بدّ أنّ كل مقيم في كتاب الوجوه أو زائر يتردّد عليه تحيط به دائرته أو دائرتها من المبدعين والمبدعات.

فيما يلي نماذج ثلاثة، أولها شعر، وثانيها خاطرة، وثالثها مناقشة أسباب الاختلاف ومبرّراته:

"أَنِفَتْ فمِلْتُ إليهما قد هزَّنِي فيها الغزلْ, أو مَنْ غزلْ, وكلاهُما ذَنبانِ يَمتَدَّانِ في الغيبِ الذي أفضَى إلى البَوحَينِ! ما جدوى (حَكَى)! إن لم توقّعْ فوقَ سِفْرِ الريحِ اسمَ العاشقينْ؟ إن لم تَبُثَّ بينَ قطرِ الروحِ رائحةَ الغَوايَةْ؟ إن لم تُذِع بين الصدورِ الجُوفِ غينَ تَعَثُّبي, إن لم

تُحَدّدْ في الغُبارِ النَّيِّ صفوًا, يُجْتَبي, فَلَها المسافاتُ التي فرَّت إليها لتَنجلي, حُجُبُ الغريبْ"
(علاء عبد الهادي، 14 يناير 2012)

"الحيّة مخلوق غادر .. هذا ما هو مكتوب في الكتب. وكلُّ المخلوقات تعرف أنَّ الحيّة مؤذية .. هذا أيضا مكتوب في الكتب. المخلوق الوحيد الذي لا يعرف أنّ الحيّة غادرة ومؤذية .. هو الحيّة نفسها. وهذا ما لم يكتب في الكتب". (أشرف الخمايسي، 14 يناير 2012)

"لماذا نحن مختلفون؟ هناك مصادر عديدة لتباين الأفراد في سلوكهم، من هذه المصادر: القدرة العقلية، والسمات الشخصية. إلا أن الدراسات عبر الثقافية تشير إلى أن الأفراد يتباينون في الأداء، ليس لأنهم مختلفون من حيث مستويات القدرة أو الكفاءة، وإنما بسبب اختلاف أساليبهم المعرفية (الطرق التي يفضلونها في معالجة المعرفة). فالأفراد يختلفون عن بعضهم بعًضا، ليس لأن أحدهم أفضل أو أسوأ من الآخر، بل لأنهم بكل بساطة مختلفون في طرق تفضيلاتهم المعرفية. فبعض الأنماط السلوكية ليست أسوأ أو أفضل من الأنماط الأخر، وإنما هي ببساطة مختلفة. هذه النظرة للفروق بين الأفراد تؤكد أن هذه الفروق هي فروق نوعية أكثر منها فروقا كمية ... لكن يبدو أنها حتمية" (أسامة إبراهيم، 15 يناير 2012)

إذا كان لا بدّ من الاحتفاء بالكتابة الإبداعية من شعر وسرد وخواطر، فلا بدّ كذلك من الاحتفاء بالكتابات التي تنقل المفاهيم الحديثة في مختلف المجالات باللغة العربيّة. وهذه أبيات أخرى كتبت أيام ثورة اللوتس في مصر:

صرختُ: بلادي ... بلادي
أنا الطلقةُ/ الوردُ
حمّلنى الفقراءُ مفاتيحَ وقتي
وخارطةَ المدنِ المُقْبلهْ
... فإن كنتِ نائمة فدعيني أهزّكِ
أسفلتُ هذى البلادِ طلاءٌ
على قشرةِ القُنْبلهْ.
(فريد أبو سعده، 19 مايو 2011)

تشير هذه النصوص بلا مواربة إلى أنّ اللغة العربية تستطيع أن تتنقل في خفّة وعذوبة من نوع خطابي إلى غيره، فتكون شعراً وتكون شعراً وتكون خاطراً أو تعريفاً وتكون غير ذلك لمن أراد وبذل بعض الجهد في سبيل ما أراد. ليس المقام مقام تحليل هذه النصوص، بل تُساق هنا أمثلة – غير حصريّة - لوجه اللغة العربيّة المبدع المشرق في كتاب الوجوه. ليس كلّ ما نقرأ من أشعار ونصوص سرديّة في كتاب الوجوه من قبيل الإبداع، ففي هذا الفضاء الافتراضي الواسع ما لا حصر لهم من الأوهام، كما يرد في الاستطراد التالي.

من أوهام الشعر في كتاب الوجوه

أنشد بعض العلماء

الشعراء فاعلمنّ أربعه
شاعر يجري ولا يجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعه
وشاعر لا تشتهي أن تسمعه
وشاعر لا تستحي أن تصفعه

وعارضه الرصافي فقال

الشعراء في الزمان أربعه
فشاعر أفكاره مبتدعه
وشاعر أشعاره متّبعه
وشاعر أقواله منتزعه
وشاعر في الشعراء إمّعه

من خلال زيارة مواقع التواصل الاجتماعي أو الإقامة فيه لفترات متفاوتة، يستطيع مستخدمو تلك المواقع تحقيق غايات دينيّة أخلاقيّة، من خلال الدعوة وتبادل النصيحة والمواد الدينيّة المسموعة والمرئيّة والمكتوبة - على أن التمحيص واجب والحذر ضروري لأنّ الأفكار التي يتبادلها من يرتادون تلك الفضاءات الإلكترونيّة ليست بريئة من الهوى أو الغرض- وغايات تجاريّة، من خلال التسويق والإعلان والترويج، وغايات سياسيّة، من خلال الدِّعاية والتحريض والتجييش، وغايات تعليميّة، من خلال تبادل الأفكار والمواد التعليمية وتبادل الأخبار والمعلومات والخبرات، غايات ترفيهيّة من خلال تبادل الموسيقى والصور والمقاطع المصّورة وما إلى ذلك، وغايات أدبيّة من خلال تبادل الكتابات الأدبية وتبادل الآراء حولها، فقد أتاحت المجتمعات الافتراضيّة فرصاً لا حصر لها لنشر الكتابات الأدبيّة التي تتراوح ما بين كتابات بالغة الرداءة وبين كتابات تستحق المتابعة والاحتفاء النقدي، وغايات نفسيّة اجتماعيّة، خروجاً من العزلة وسعيا إلى بناء علاقات اجتماعية تشبع حاجات البشر بوصفهم كائنات اجتماعيّة (ومن الطريف أنّها وهي تقاوم العزلة تخلق تلك المجتمعات الافتراضيّة عزلة من نوع جديد)، وغايات شبقيّة وهميّة - على شبكة الإنترنت سراديب وأركان حمراء لا حصر لها لراغبي اللذات الجنسيّة الوهميّة التي يمكن أن تتحوّل إلى علاقات واقعيّة. لا تقتصر مخاطر هذه الممارسات على الخروج على الأخلاق بل تتجاوز ذلك إلى تدمير الأسر ورفع معدلات الطلاق في حال أدمن الأزواج أو الزوجات قضاء أوقاتهم في الجري وراء هذه الأوهام - وغايات عاطفيّة قد تنتهي تلك المواقع إلى التأسيس لعلاقات عاطفيّة منها ما ينتهي بالزواج في الواقع، غير أنّ العلاقات التي تبدأ من الفضاء الافتراضي تظلّ تتهدّدها الأكاذيب والأوهام ما لم تخضع لاختبارات العالم الواقعي.

سوف نتوقّف فيما يلي مع غاية التعبير الأدبي. أتاحت مواقع التواصل الاجتماعي فرصاً لا حصر لها للكتابة ونشر النصوص الأدبية لكلّ من يستخدمها. لم تعد تلك النافذة قاصرة على من لا يستطيعون الوصول إلى منابر النشر التقليديّة، فقد أصبح لكثير من الأدباء والشعراء المعروفين صفحات ينشرون فيها كتاباتهم ويتفاعلون من خلالها مع قرّائهم. وفي زحمة "الإبداعات الافتراضية" أشراك ومخاطر، منها ما تكرّس تلك الفضاءات، بسبب غياب التقييم النقدي الصارم من أوهام عن الشعر وأشراطه وحدوده. وهذا بيان بعض أوهام الشعر في كتاب الوجوه (الفيسبوك).

الوهم الأول: أنا أشعر إذن أنا أستطيع أن أكتب الشِّعر .وهل الشِّعر إلا شعور؟ ألا ينتمي "الشِّعر" والشعور إلى نفس الجذر الثلاثي "ش ع ر"؟ فلماذا لا تكون كلُّ كتابة عن المشاعر أو كلّ "فضفضة" شعراً؟ ألم يقل شاعر الرومانسية الإنجليزي ووردزورث إنّ الشعر هو فيض مشاعر تلقائية قويّة؟ وهم كبير، فالناس جميعا يشعرون لكنَّهم ليسوا جميعا من

الشعراء .الشعر تعبير لا شعور، قد يكون تعبيرا عن شعور أو فكرة أو موقف، لكنّه ليس شعوراً.

الوهم الثاني: أنا أتذوق الشِّعر إذن أنا أستطيع أن أكتب شعراً .ليس صحيحا أن من يقرأ آلاف الأبيات من الشعر، حتى لو وعيها وحفظها جميعاً، يصبح بالضرورة شاعراً. من المؤكّد أنّ القراءة والمعرفة وسيلتان لا غنى عنهما لصقل موهبة الشاعر أو الشاعرة لكنّهما لا تؤديان حتما إلى إنتاج الشعر. وهل كلُّ من يتذوّق الموسيقى ويستمتع بالغناء يصبح عازفاً موسيقياً؟

الوهم الثالث :أنا أستطيع أن "أقفي" إذن لا بدّ أن يكون ما أكتبه شعراً .**أنا أنظم إذن أنا أكتب شعراً) .**النظم هنا ليس له علاقة بمفهوم النظم عند الجرجاني.) وهم آخر كبير يهيمن على كثير من العقول فترى أصحابها يحسبون كلّ كلام مقف شعراً: "وقفت بالباب /وقد غادرني الأصحاب/ ولم أذق الطعام ولا الشراب/ باعوني هؤلاء الكلاب". لو كان هذا شعراً فما أيسر الشعر وما أسهله! الشعر موسيقى ذات أفكار أو كلام موزون مقف.

الوهم الرابع :أصدقائي على الفيسبوك يقولون إنّني شاعر – بل يطلقون علي ألقاباً من قبيل "متنبي القرن الحادي والعشرين" – فأنا بالضرورة شاعر. وهم آخر كبير لأنّ كثيرا مما يكتب على الفيسبوك من قبيل المجاملات وتبادل الإعجاب. أحيانا تجد كلمات تفتقر إلى أبسط قواعد النحو والإملاء وتجد تحتها تعليقات تثير العجب لما فيها من مديح غير مستحق وإطراء في غير موضعه. لا حرج على من يريد أن يثني على أصدقائه أو "يرفع معنوياتهم" لكنّ الخوف هو أن يصدّق من يكتب الكذبة ويبني عليها أوهاما سوف تتهاوى حتما عند أول مواجهة حقيقية. وقد كتبت في مقام سابق أنّ كثيرا من المجاملات على الفيسبوك يندرج تحت "التظبيط والتربيط "على معنى أنّ من يجامل ينتظر أن يجامله الآخرون وهكذا.

الوهم الخامس :كلّهم يكتبون ويطلق كلّ منهم على نفسه لقب "الشاعر الأديب الكاتب" وهكذا، فلم لا أفعل أنا؟ لا تثريب على من يفكّر بهذه الطريقة. فليكتب من يريد أن يكتب وليجامل من أراد أن يجامل فليس على الكلام "جمارك" ولا "ضريبة مبيعات"، لكنّ من أراد أن يترك اسمه في ديوان الشعر العربي، فعليه ألا ينخدع، بل عليه أن يختبر ما يكتب عند من يفهمون معنى الشعر، وليطبع ما يظنّه شعراً في ديوان أو يقرأه في ملتق شعري أو يتقدّم به إلى مسابقة شعرية مرموقة ليرى أين يقف. بعض ما نقرأ على الفيسبوك من تعليقات يستحق التقدير والإشادة، لكنّ معظمه من قبيل "الكلام الحلو" الذي "يجبر الخواطر" ويقوي الصداقات، لكنّه لا يصل بمن يكتب إلى شئ.

الوهم السادس :أنا أكتب في موضوعات مهمّة – حب الوطن ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم وبر الوالدين وغير ذلك – وهذا يكفي. ليس كلّ الكلام في الموضوعات الكبيرة شعرا مع أنّه يستحق التقدير والقراءة بطبيعة الحال.

ليس من غايات هذه الخاطرة أن تقدّم "وصفة جاهزة" لكتابة الشعر، فقد فعل هذا نقاد الأدب في مختلف عصوره – ومن ذلك أنّ الشعر موسيقى ذات أفكار أو صياغة وتأليف يتّسم ببراعة الاستعارة. وليس من غاياتها أن تدعو إلى مقاطعة ما يضعه أصحابه تحت فئة الشعر فكلّ تجربة إنسانية تستحق الاهتمام والاحترام وكلّ تعبير إنساني يستحق التلقّي والمتابعة. الغاية هي إعادة النظر في حدود الشعر وأشراطه حتى لا نفقد قدرتنا على تسمية الأشياء بأسمائها ووضعها في المكان الذي يليق بها وتليق به. قد يكون كلّ ما يكتب جميلا وبليغا

بطريقته الخاصّة لكن ليس كل ما يكتب بالضرورة شعراً.

وجه ظريف

"مبارك ملاك بجناحين.... يبقوا ناويين يطيروه من القفص....!!!!" (18 يناير 2012)

"مصر مشهورة بالاقطان طويلة التيلة ...والمسئولين طويلى العمر ...الشعب يجنى القطن..والمسئولين بيجنوا على الشعب....!!!!" (18 يناير 2012)

هذان نصّان من صفحة الكاتب سليمان الحكيم يجسّدان وجه اللغة العربيّة "الظريف" في كتاب الوجوه. يكمن الظرف هنا في التشكيلات الاستعارية واللعب على معاني الألفظ ونطقها وجرسها الموسيقي. ومن سمات هذه الكتابة، لأنّها تتكئ على الاستعارة، انتقال المفردات من حقولها الدلالية المألوفة إلى حقول دلالية جديدة، والتورية – "القفص": "قفص المحكمة و"قفص" الطائر الحبيس. في النص الثاني تكرار صفة الطول تارة نعتا للقطن وتارة نعتا للمؤولين، وتكرار فعل يجني، تارة بمعني "يحصد" وتارة بمعنى "يقترف جناية".

وفي النصّين عادتان جديدتان على اللغة العربية هما التنقيط وتكرار علامة الترقيم. ليست هناك قواعد تضبط علامات الترقيم في كتاب الوجوه، ولا في غيره من وسائل الإعلام الورقيّة اليوم، ولا عدد "النقط" ولا مواضعها. (وقد لفتت طالباتي في قسم الترجمة نظري إلى الصعوبات التي تنجم عن عادة "التنقيط" عند ترجمة نصٍّ عربيّ إلى اللغة الإنجليزية، لأن المواضع التي ترد فيها النقط لا يحكمها قاعدة أو منطق واضح فيصبح لزاما على الطالبة المترجمة أن تختار علامة الترقيم المناسبة في اللغة الإنجليزية)

وجه قبيح

لا بدّ أن عينك قد وقعت ذات يوم على كلمات من قبيل "لاكن" ولذالك" و"هاذه" وإليكي يا عزيزتي" و"ربنا معاكي". وربّما رأيت عجلة "الانتاج" معطّلة لأنّها لا تسير بغير همزة قطع و"الإقتصاد" مثقلا يتعثّر لأنّه همزته همزة وصل لا قطع. ولا بدّ أنّك تمنّيت ولو مرّة واحدة من قبل أن تجد مفردات عربيّة تحلّ مكان "لايك" و"كومنت" و "شير"، وانفعلت وأنت تقرأ "وان رائيت اننى سأنفعل أخرج من الحوار أفضل" – ليته خرج قبل أن يكتب "رائيت". **ولعلّك تساءلت وأنت تقرأ** "حمكه فى الإسلام" – والصواب "حكمه في الإسلام" - كيف يفتي من لا يجيد الكتابة أو لا يراجع ما يكتب؟ وما الذي يشغلك وأنت تقرأ "وفاة زوجان في الحمام": ملابسات الوفاة أم الخطأ النحويّ الفاضح؟ وربّما جمح بك الخيال والتمنّي ووددت لو أنّك رأيت كلمة عربيّة تعلو صفحتك مكان كلمة "فيسبوك" وأخرى تزيح كلمة "تويتر". لا تسل وأنت تتجوّل في شوارع العالم الافتراضي عن الشَّدّة ولا عن علامات الترقيم، أو علامات الإعراب، ولاتنزعج إذا رأيت الألف تتكاثر في "لاااااااااايك" أو الواو تطول في "ملطوووووووووش"، فهذة تنويعات من قبيل "الدلع" لا تذكر بالمقارنة بالجرائم التي ترتكب في حقِّ اللّغة العربيّة.

وجه شائه

وفي كتاب الوجوه وجه شائه ترتبك فيه اللغة العربيّة فتكتب تارة بحروف لاتينية وأرقام وتارة تختفي تماما وتحلّ محلّها لغات أخرى بدون مبرّر وظيفي مقنع. مبررات فتنة اللغات الأجنبيّة

كثيرة ومتنوعة. وقد دأبت بعض الجهات الداخلية والخارجية على محاولة إقناع المجتمعات العربيّة أنّ الطريق الوحيد والسريع إلى التقدّم هو استبدال الإنجليزيّة بالعربية، والباء تلحق بالمتروك.

ومن قبيل "الاستسهال" الإصرار على "لايك" و"كومنت" و"شير" و"فيسبوك" وما شابهها مع وجود بدائل عربيّة مقبولة هي "إعجاب"، و"تعليق" و"تبادل" و"كتاب الوجوه". هناك محاولات لتعريب الفيسبوك، غير أنّ اللغة العربية التي نجدها في هذه المحاولات تشبه إلى حدٍّ بعيد لغة الترجمة التليفزيونية والسينمائية.

ومن صور القبح في كتاب الوجوه ما لا يتعلّق بالنحو أو الإملاء لكن يتعلّق بسلوكيات مستخدميه وأخلاقهم، ومن ذلك ما يحفل به من سباب وشتائم وألفاظ نابية.

ما ضرر القبح والأخطاء النحويّة والإملائيّة؟ اللغة وعاء الفكر، وإذا فسد الوعاء، فأغلب الظنّ أنّ ما فيه فاسد أو عرضة للفساد. كم من فكرة بديعة مبهرة نفر منها القارئ لأنّ اللغة التي حملتها لغة رديئة أو غير مفهومة! حين تكتب وتنتبه إلى اللغة التي تكتب، تمنح نفسك الفرصة لمراجعة الفكرة وضبط إيقاع الكتابة، فيكون المنتج جميلا في شكله ومضمونه. أمّا حين تسابق الساعة تريد أن تلحق بأصدقائك قبل أن يناموا فتكتب دون تروٍ أو مراجعة، وتسارع إلى وضع ما كتبت على جدران صفحتك، فأغلب الظنّ أن ما كتبت ليس أفضل ما عندك، لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون. هكذا تُوقع الضرر بنفسك وباللغة العربيّة – وتعلّم من يتخذونك قدوة من معجبين وطلاب علم أنّ الإتقان ليس شرطا للإبداع. ما الضرر في أن يكتب أحدهم "كن راقي في حوارك" – بدلا من "كن راقياً في حوارك" – أو يكتب "تتطلب اثني عشر نحلة" وتحتاج إلى "تعاون فاغر"؟ أو أن يكتب صحفيٌّ مشهور "ولكنه لم يقدم دليل علي ذلك ..." - حيث كان ينبغي أن يكتب "دليلاً"؟ أهون الأضرار أنّ النصّ قد يثير النفور أو يصرف نظر المتلقي من المحتوى إلى الأخطاء النحوية والإملائية. أمّا بقية الأضرار فمنها ارتباك المعاني وتدهور اللّغة العربيّة.

فما مخاطر التشويه والإقصاء؟ سوف ينجم عن تشويه اللغة تشويه الفكر وارتباك الهويّة، كما حدث للغراب الذي أراد أن يدرج كالحجلة في كليلة ودمنة، وسوف ينجم عن اللجوء إلى اللغات الأجنبيّة دون مبرّرات وظيفية مقنعة لن يبقى ما يدفع إلى تطوير اللغة العربيّة أو محاولة إتقانها. من نافلة القول أنّ اللغات الأجنبية خصوصا الإنجليزيّة لا غناء عنها ولا حرج في استخدامها ما لم يؤد ذلك إلى إضعاف اللغة العربيّة.

من أين يأتي الخلل؟

لم يدفع الاهتمام بالإنجليزية كثيراً من الدول إلى التخلّي عن لغاتهم القوميّة في التعليم الجامعي والتأليف والمحافل الرسميّة الدوليّة، بل إن فرنسا وألمانيا وأسبانيا وروسيا والصين وغيرها ازدادت اعتزازاً واهتماماً بلغاتها واستخداما لها في مختلف المجالات واحتراما لعلاقتهم بها مع انتشار وتفوّق اللغة الإنجليزية عليها في المنظمات الدولية والمجالات العلمية. ليس من بين الدول التي يطلق عليها "الكبرى" من تستخدم غير لغتها لغةً للتدريس. حتّى الدول التي لا تنتمي إلى هذا التصنيف تجاهد لإعادة لغاتها المحليّة إلى موقع الصدارة. في بيلاروسيا لغة التدريس هي الروسية، وفي الصين الصينية (Mandarin)، و في فنلندة الفنلندية، و في فرنسا الفرنسية (لا يسمح القانون بالتدريس بغيرها)، و في رومانيا الرومانيّة، و في تنزانيا اللغة السواحيليّة حتى نهاية المرحلة الإعدادية، و في إسرائيل تدرس العبريّة جنباً إلى جنب مع الإنجليزيّة.

يبدو أنَّ هناك علاقةً طردية بين الاحتفاء بالإنجليزية وازدراء العربية أو على الأقل تجاهُلها وفقدان الاهتمام بها. دائرةٌ مغلقة لا بدَّ أن نجِدَ السبيلَ إلى اختراقها: من **مناهج تقليدية**، ولغة قديمة أو مفتعلة، إلى **صعوبات** في التعلم و**نفور** من اللغة العربية خصوصاً النحو، إلى **مخرجات** تعليمية غير مُرضية تتبدى جلية في رداءة مستوى الكتابة التعبير باللغة العربية عند جملة الخريجين و الخريجات إلى **وسائل إعلام** في مجملها ترجمات رديئة أو غير واعية عن مصادر ونصوص و وكالات أنباء أجنبية إلى **أُسرٍ** لم تعد تجد في اللغة العربية حاجة ملحة طالما أن النجاح الوظيفي والمكانة الاجتماعية يرتبطان باللغة الإنجليزية. إهمالٌ يُنتج ضعفاً وضعفٌ ينتهي إلى مزيدٍ من الإهمال. هذه صورة موغلة في القتامة فيها كثير من الإجحاف والظلم للمحاولات الفردية المبهرة، للمدارس التي تجتهد في الدفاع عن اللغة العربية، وللأسر التي ما زالت تحرص على إتقان أبنائها وبناتها إياها، ولغير ذلك من نماذج تبقى مع بالغ الأسف حالات فردية واستثناءات من القاعدة العامة.

يبدو أنّ اللغة العربية، بفعل فاعل ونيّة قاصد، وبفعل المتغيّرات الاجتماعيّة والاقتصادية والسياسيّة قد أصبحت في عدد لا بأس به من الدول العربيّة من قبيل "العلم الذي لا ينفع والجهل الذي لا يضرّ" – على الأقل هذا ما يعتقد كثير من أبنائنا وبناتنا ممن تربّوا على يد الإعلام الردئ والمدارس المعطّلة. يحدث هذا في الوقت الذي يزداد فيه إقبال غير العرب على تعلّم اللغة العربية منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر. هل يحتاج الطبيب أن يكتب لغة عربيّة سليمة ليمارس الطب وهل يحتاج المهندس اللغة العربيّة الفصيحة ليمارس الهندسة أو ليجد وظيفة مناسبة في مجاله؟ أسئلة تحرّض على الضحك. فلنسأل أسئلة أقرب إلى الواقع. هل يحتاج دارس الإعلام إلى إتقان اللغة العربيّة حتى يصبح إعلامياً ناجحاً في دولة عربيّة؟ وهل يحتاج الأديب أن يتقن اللغة العربيّة؟ سؤالان مضحكان – كيف يكون الإعلامي إعلاميا والأديب أديباً بغير لغة؟ على رسلك، فلم تعد اللغة العربية الصحيحة الرصينة شرطاً جوهرياً في الحالتين. هذا جزء من إعلان عن وظائف شاغرة: "مطلوب شباب من الجنسين ذو مظهر حسن للعمل بشركه دعايا واعلان"، هل يتوقّع أن تنشغل الشركة صاحبة الإعلان، وهذه لغتها العربيّة، بالنحو والصرف والإملاء؟

ليست هناك جهة واحدة يمكن أن نلقي باللوم عليها فيما آل إليه حال اللغة العربيّة، فالجميع مشتركون متواطئون ولكلٍّ أسبابه ومبرراته – المدرّسون مقصرون وحجّتهم الرواتب المتدنّية والسعي إلى تحسين الدخل من خلال الدروس الخصوصيّة، ووسائل الإعلام ترتكب الجرائم صباح مساء في حقّ اللغة العربية وحجتها أن الجمهور "عاوز كده" أو أنّ اللغة لم تعد تهمّ، وأساتذة الجامعات مقصّرون وحجتهم "لا يصلح العطّار ما أفسد التعليم قبل الجامعي"، والطلاب في غير أقسام اللغة العربيّة مقصّرون وحجتهم أن لا حاجة ولا ضرورة لإتقان اللغة العربيّة.

مقترح: تعزيز اللغة العربية

لكي يُصبحَ تعزيزُ اللغةِ العربية غايةً واقعية لا مجرَّدَ خطابةٍ و بلاغةٍ جوفاء، لا بُدَّ من ترسيخ شراكاتٍ عربية تنطلق من الإيمان بأنَّ العربية ليست مجرَّدَ مساقٍ أو مقرر دراسي نُرضي به ضمائرنا في المدارس الأجنبية، أو ندرِّسه بدون تحديث في المدارس الحكومية، بل هي قضيّة حياة أو موت. هناك ما لا حصر له من التوصيات والمقترحات التي تبقى حبيسة الأدراج أو أرفف المكتبات، ولا يبدو أنَّ هناك حاجة إلى مزيد من التوصيات أو المقترحات. فيما يلي خطوط عريضة لترجمة الانشغال باللغة العربيّة إلى إجراءات وأفعال على أرض الواقع:

- **التوحيد**: الوصول إلى الحدّ الأدنى من توحيد الهدف العربي فيما يتَّصلُ بتعزيز مكانة اللغة العربية، والسعي إلى لغةٍ عربيةٍ مشتركة – لغة عربية فصحى معاصرة – لا هيمنة فيها لمتنٍ على حساب هوامش، ولا لمركزٍ على حساب أطراف، وتنسيق الجهود العربيّة الرامية إلى تعريب العلوم كمرحلةٍ أولى ضروريّة لعلها تسبق مرحلة إبداعٍ علميٍّ باللغة العربيّة. وسوف تبقى لغة القرآن الكريم والسنة المطهَّرة والتراث العربي مِلكاً للعرب والمسلمين جميعاً. أمَّا اللهجات المحليّة فإنَّ في تبادل نشرها بين الشعوب العربية ما يدعم محاولات تعزيز الهوية واللغة العربية، وما يعزِّز التعاطف ويرأب قدراً من التصدّع بين الدول العربيّة.
- **التجديد**: تجديد النحو العربي وطرق تدريس اللغة العربية، و لا مناص هنا من الإفادة من نظريات التعليم والتعلُّم في الغرب، مع مراعاة اختلاف السياق الثقافي، وكذا إعادة قراءة التراث التربوي العربي – ولعل في الاقتباس من مقدمة ابن خلدون الذي ناقشته الدراسة فيما سبق ما يُشعِرنا بالتقصير تجاه هذا التراث. ولا معنى لتجديد المناهج أو "تجميل" الكتب الدراسية دون تجديد طرق تدريس اللغة العربية ودون ربطها بالواقع وبالحاجات الحياتية والاستحقاقات المهنية ومتطلبات سوق العمل.

ليس ثمة لغة ترتبط بكتاب سماوي كما ترتبط اللغة العربية بالقرآن الكريم: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ" (القرآن الكريم، سورة **النحل**، آية 103). هنا يكمن سرٌّ من أسرار بقاء العربية ورابطٌ لا ينفصم بين كلِّ الأمم التي تقرأ القرآن. حتى حين تُتَرجَمُ معاني القرآن الكريم إلى لغات غير العربية، يبقى الإحساس بأن هناك أشياء قد سقطت في الترجمة. إن المسلم يؤدى صلواته باللغة العربية ويدعو بها ويبتهل ويذكر ويسبّح ويؤدى مناسك الحج. هناك بطبيعة الحال ترجمات لكل ما سبق، غير أنّ اللغة في هذا السياق لا تنفصم عن محتواها، حيث يكمن قدرٌ كبير من جمال المحتوى في سمات الشكل، في الترادف والسجع والإيقاع والجناس والطباق وفي دلالات الأصوات نفسها مما لا يمكن أن تنقله الترجمة.

نجَمَ عن الارتباط بين **اللغة العربية والقرآن الكريم** شعورٌ بالاطمئنان لدى عامة المسلمين لأنَّ الله تعالى وعد بحفظ القرآن الكريم - "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (سورة الحجر، آية 9) - والعربية لغته، فهي في أمان الله. هذا الشعور بالاطمئنان زائفٌ في غير موضعه لأنَّ الله عز وجل لم يتعهَّد بحفظ قدرة المسلمين على قراءة القرآن و فهمه ما لم يبذلوا جهدا في تعلم لغته التي أُنزِل بها. ونتج عن الارتباط بين العربية و القرآن كذلك تقديسٌ لكلِّ ما هو مكتوب – لكلِّ نصٍّ كما لو كان "قدراً مكتوباً". هذا التقديس طالما عطَّل قدرةَ العرب والمسلمين على التفكير الإبداعي وعلى النقد ومساءلة النصوص.

ولقد ظلَّ الهجوم على اللغة العربية أو التقليل من شأنها في نظر عامة المسلمين هجوما مباشراً على القرآن الكريم. الحمية والدفاع الشرس والتظاهر والمقاطعة هي بعض ردود أفعال العرب المسلمين تجاه أي هجوم على العربية. حساسيةٌ مفرطة تفتقد إلى العقلانية في كثير من الحالات تنتج عن المُطابقة بينَ اللغةِ العربية والقرآن الكريم. وهي مطابقة لا مُبرِّرَ لها لأنَّ العربيةَ "لغة القرآن" لكنها ليست القرآن، ولأن العربية شرُفت بالقرآن الكريم والقرآن الكريم لا يعوزه تشريف. هذه الالتباسات وما شابهها طالما عطَّلت جهودَ إصلاحِ اللغة العربيةِ وتطويرها وطالما كانت حجرَ عثرةٍ في سبيلِ إعادة النظر في مناهجها وطرائقَ تعليمها وتعلُّمها. أمَّا الوجه الآخر – المشرق - فهو أن الارتباط بين العربية والقرآن الكريم سيظل أقوى مبررات بقائها على الإطلاق – خصوصاً في ظل ضعف غيره من المبرّرات.

- **التصعيد**: لا بدَّ أن يصبحَ تعزيزُ اللغة العربية "هماً رسميّاً" من خلال اهتمام حكوميٍّ وإعلاميٍّ بالتعريب. على الحكومات العربيّة أن تنظر إلى اللغة العربيّة بوصفها صمام أمان

وحائط دفاع أخير للمحافظة على الهويّة والوطنيّة. الكارثة تقع عندما تعتقد الحكومات العربيّة أنّ صلاح حالها وحال بلدانها في التخلّي عن اللغة العربية لحساب لغة أجنبيّة. لا يحدث ذلك بصورة فجّة مباشرة لكنّه يحدث بالإيحاء والتمادي: نريد أن ننال اعتراف العالم بمؤسساتنا التعليميّة، إذن لا بدّ أن نفعل ما يقول الخبراء "الأجانب"، والخبراء الأجانب يقولون لا بدّ أن يكون التعليم باللغة الإنجليزية، إذن فليكن التعليم باللغة الإنجليزية ولتذهب اللغة العربيّة إلى الجحيم. لماذا لا يكون الاعتراف "العالمي" المرجو مع الإبقاء على اللغة العربيّة وتعزيزها وتطويرها جنباً إلى جنب مع اللغة الإنجليزيّة؟ ولماذا لا تلقى الأضواء على التجارب الناجحة في التعليم ثنائي اللغة في العالم العربي؟

- **التعضيد**: ينبغي أن يدعم التعريبَ **نهضةٌ علميةٌ** عربية، لا نحتاج إلى البحث عن مصادرها أو مواردها لأنّها موجودة، كلُّ ما في الأمر أن نُشجِّعَ الإبداع والابتكار وإجراء الأبحاث والدراسات العلمية والتقنيّة باللغة العربيّة، وأن نهتَّم بالثقافة العلميّة العامّة لأبنائنا وبناتنا، وأن نمنح المبدعين والمبدعات في مجالات العلوم المختلفة ما يستحقون من دعم وتقدير، وأن نعمل على توفير متطلبات البحث العلمي في المدارس والجامعات.

مراجع

- القرآن الكريم

- عبد الله ابن المقفع: **كليلة ودمنة**، ط4. بيروت: دار الأندلس، 1983، ص ص 356-358.
- نفّوسة سعيد: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**. القاهرة: دار المعارف، 1980م. ص ص 28-29.
- عمر عسوس: "اتجاهات الجزائريين نحو التعريب". **الفكر العربي**، ع 28، 1994، ص ص 94-105.
- **النص الكامل لتوصيات مجمع الخالدين. جريدة الأهرام، 10 إبريل 1998، ص 8.**
- هانز بيتر مارتن و هارالد شومان: **فخ العولمة**، ترجمة عدنان عباس على. سلسلة **عالم المعرفة**. الكويت: المجلس الوطنى للثقافة و الفنون و الآداب، 1990.

- Crystal, D. (2003). *English as a Global Language* (2nd ed.). New York: Cambridge University Press, p. 60. (See also Graddol, 2000, p. 10).
- Chang, J. (2006). "Globalization and English in Chinese higher education". *World Englishes, 25*(3/4): 513–525.
- http://en.wikipedia.org/wiki/Medium_of_instruction